الدراسات

العلاقات المصرية الجنوية في العصر المملوكي

(٧٨٥-٨٦١هـ/١٣٨٣-١٤٥٧م)

الأستاذ الدكتور

فائز علي بخيت

Received :9 / 11 / 2025
Revised: 21 / 11 / 2025
Accepted: 15 / 12 / 2025
Published: 1 / 2 / 2026

أ.د. فائز علي بخيت
جامعة الموصل/ كلية التربية الأساسية
قسم التاريخ
dr.faizali75@uomosul.edu.iq

العلاقات المصرية الجنوية [١] في العصر المملوكي (٧٨٥-٨٦١هـ/١٣٨٣-١٤٥٧م)

لقد كان لموقع إيطاليا الجغرافي أهمية كبيرة من الناحية السياسية والتجارية، فهي تقع في جنوب أوربا ويفصلها عنه جبال الالب، يحدها من جهة الشمال الشرقي النمسا وبحر الادرياتيك ومن الشمال الغربي فرنسا، ومن جهة الغرب البحر المتوسط ومن الشرق بحر البنادقة [٢] .

ومن الجدير بالذكر انه في نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كانت الحالة السياسية لإيطاليا مترديه، لأنها كانت منقسمة إلى عدة كيانات متنازعة فيما بينها وتسيطر عليها قوى مختلفة الجنسيات، فالبيزنطيون من جهة الجنوب كانوا مستولين على ابوليا وكيريا ، وسيطر المسلمون على جنوبها الغربي لتخليصها من البيزنطيين واللومبارديين [٣] .

ان للممالك الإيطالية اهمية خاصة وتحديداً الممالك التي تقع في شمال ايطاليا ، فمنذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي شهدت ايطاليا تطورات اقتصادية وسياسية ادت إلى نشوء الممالك التي عرفت باسم الكومونات ***Commune*** [٤] أو الممالك ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل [٥] ، وكان الهدف من قيامها هو تحطيم نفوذ أسقف المدينة وهذا بدوره أدى إلى الاستقلال التام لتلك الكيانات ، وتقدم الممالك الإيطالية في الميادين الاقتصادية والحضارية [٦] ، لذلك سوف تقتصر الدراسة على اهم الممالك الإيطالية التي كانت لها علاقة بالدولة الجركسية ، ومن ابرزها :

لقد ارتبط وجود جنوة في البلاد العربية الإسلامية وخاصة في بلاد الشام منذ بداية الحروب الصليبية، والتي وقع على عاتقها نقل المقاتلين الافرنج إلى تلك المنطقة [٧] ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت جنوة تفكر في مصير مصالحها التجارية ، لذلك توجب عليها محاربة كل من ينافسها من الدول الأخرى ، وخاصة البنادقة لكونها كانت مسيطرة على معظم النشاط التجاري في البحر الابيض المتوسط [٨] ، وهذا ما أثر سلباً على علاقاتها مع الجراكسة [٩] .

فعندما تولى السلطان برقوق عرش مصر بدأت الهجمات الجنوية بعد عام من توليه السلطنة ، ولم تكن تلك الهجمات منفردة بل شاركهم فيها قراصنة من الكتلان والروادسة والقبارصة [١٠]، ففي سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) قامت جنوة وحلفاؤها بالهجوم على ميناء صيدا متجهة نحو بيروت [١١]، إلا ان البحرية الجركسية لم ترد على ذلك الاعتداء مباشرة لعدم امتلاكها القوة الكافية للرد ، لذلك استمر الاعتداء الجنوي على موانئها ، فقد تعرض ميناء دمياط إلى عملية قرصنة جنوية في سنة (٧٨٧هـ/١٣٨٥م) لكن البحرية الجركسية تمكنت في هذه المرة من التصدي لهم والحاق الهزيمة بهم [١٢]، ونتيجة لذلك عقدت البحرية الجنوية معاهدة صلح مع الجراكسة سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م) لكي تتمكن من اعادة تنظيم قواتها من أجل استمرار قرصنتها ضد الموانئ المصرية والشامية ، وتاكيداً لذلك فقد قام الجنويون بالهجوم على عدد من المراكب العائدة للدولة الجركسية ، التي كانت تحمل عدداً من الرقيق والبضائع ومعهم اخت السلطان برقوق وبعض من اقاربه الذين تم أسرهم مع الركاب ، وهذا ما اثار غضب السلطان وجعله يتخذ اجراءاً سريعاً يقضي بالقاء القبض على الجاليات الأوربية في دولته [١٣] .

إلا ان هذا الإجراء لم يغير من الأمر شيئاً ، بل على العكس فقد أغار الجنويون كرةً أُخرى على ميناء طرابلس الشام في سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) [١٤] وفي السنة ذاتها تمكنت الدولة الجركسية من تحرير الميناء والاستيلاء على ثلاثة مراكب جنوية ، وعندئذٍ

شعر الجنويون بالقلق من جراء المقاومة التي واجهوها من البحرية الجركسية التي كانت لهم بالمرصاد ، لذلك حاولوا امتصاص غضب الدولة الجركسية بأسلوب دبلوماسي حيث قاموا أولاً : باطلاق سراح عدد من الاسرى الجراكسة الموجودين لديهم ، وثانياً : إرسال هدية للسلطان برقوق وكان هذا في سنة (٨٩٠هـ/١٣٨٨م) [١٥].

وعلى ما يبدو ان الأوضاع السياسية المضطربة داخل الدولة الجركسية وخاصة بلاد الشام [١٦]، كانت سبباً في استمرار الهجمات الجنوية عليها ، لذلك فقد ابحرت البحرية الجنوية بحملة مكونة من اثني عشر مركباً متوجهة إلى ميناء طرابلس الشام في سنة (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، إلا ان تلك الحملة تعرضت لعاصفة قوية ادت إلى تدميرها واغراق معظم مراكبها ، مما أدى إلى انسحاب سائر المراكب من دون تحقيق هدفها المنشود [١٧] .

هكذا تبدي لنا الأحداث تأرجح العلاقات المصرية ـ الجنوية ما بين العداء والسلم ومما يدل على ذلك الهدوء الذي ساد تلك العلاقات في أوآخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ولمدة لاتزيد على العشر سنوات ، إلا أنها ازدادت سوءاً في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، واخذت طابعاً عدائياً لأسباب داخلية وخارجية تخص الدولة الجركسية ، فمن الناحية الداخلية كان الوضع مضطرباً بسبب الصراعات الداخلية ، فضلاً عن التهديدات الخارجية التي كانت تتعرض لها المنطقة ، وخاصة الخطر التيموري الذي كان يهدد بلاد الشام ، ممّا شجع الجنويون على استغلال ذلك الضعف الداخلي والخارجي للجراكسة فجعلهم يقومون في سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) في عهد السلطان الناصر فرج بالهجوم على السواحل الشامية والاستيلاء على ستة مراكب تجارية فيه [١٨] .

واستمر تازم العلاقات بين المصريين والجنويين ، ففي سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) جيث استولى القراصنة الجنويون على عدة مراكب تجارية في ميناء طرابلس الشام ، ورداً على ذلك قام اهل الميناء بمقاتلتهم لكن من دون جدوى ، وبعد سنة من تلك الاعمال

العدوانية تعرض ميناء الاسكندرية لهجوم مماثل فاستولوا على مركبين يعودان لتجار الجراكسة ، كانا محملين بالبضائع وأسروا من كان بهما (١٩) .

ومن الجدير بالذكر ان تركيز القوات البحرية الجنوية في هجومها على الموانئ الشامية ، كان الهدف من ورائه أمرين ، الأول : إضعاف الدولة الجركسية اقتصادياً من خلال استيلائهم على تلك الموانئ ومن ثم يسهل عليهم السيطرة على المراكب التجارية كافة المتجهة من مصر وإليها ، وثانيهما : قطع علاقة البنادقة بالدولة الجركسية .

واستمراراً للطابع العدائي الذي أضفي على العلاقات المصرية الجنوية ، قامت البحرية الجنوية بالهجوم على ميناء طرابلس ، فقوبلوا بمقاومة شديدة من قبل اهل الميناء الذين اجبروهم على التراجع ، وتفادياً لذلك الموقف الصعب عزم أصحاب الميناء إلى عقد الصلح معهم ، فأرسلوا مبعوثهم يقترح إطلاق سراح الأسرى الجنويين مقابل إيقاف اعتدائهم على الموانئ التابعة للدولة الجركسية ، إلا ان تلك المبادرة باءت بالفشل فتم اسر المبعوث والاستيلاء على احدى القرى التابعة للجراكسة ، واسروا من كان فيها ، وتدميرها بشكل كامل (٢٠) .

وفي سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) عاودت المراكب الجنوية وبالاشتراك مع قراصنة من القبارصة والروادسة بالقيام بحملة واسعة على سواحل بلاد الشام ، وهاجمت ميناء طرابلس في ثلاثة مراكب فتصدى لهم اهل الميناء بكل قوة ، مما اضطرهم إلى التوجه إلى بيروت ومن ثم ساروا إلى ميناء صيدا واحرقوا في طريقهم مركباً قادماً من ميناء دمياط ، إلا ان المقاومة الشديدة التي أبداها أهلُ الميناء مكنتهم من ملاحقتهم حتى اخرجوهم من المنطقة ، وفي أثناء ذلك قامت مجموعة اخرى من المراكب الجنوية بالهجوم على ميناء الاسكندرية ، فأمر السلطان الناصر فرج الأمير برهان الدين ابراهيم كبير التجار بالتوجه إلى الاسكندرية لغرض إيقاف ذلك التهديد ، وبعد تلك الحملة اعدت حملة اخرى بقيادة القائد الجنوي ***De – Boncicaut*** متجهة إلى جزيرة رودس لتعزيز قوة الحملة بالعدد والعدة الحربية ، وفي الوقت نفسه عرض الجنويون عقد صلح مع القبارصة ، لغرض تامين سير الحملة ودعمها معنوياً ، ومقابل ذلك استعدت البحرية

الجركسية لمواجهة تلك الحملة واتخذت الاحتياطات اللازمة كافة لغرض المواجهة ، وفي أثناء ذلك أرسل قائد الحملة الجنوية مبعوثاً إلى السلطان الجركسي يطلب منه عقد صلح بينهمـا ، غير ان المفاوضات لم تلق جواباً ايجابياً [٢١].

وعلى ما يبدو ان التغيير المفاجئ في السياسة الجنوية تجاه الدولة الجركسية ، ما هو إلا خدعة لغرض الكشف عن مدى قوتهم من خلال قَبولهم ورفضهم لذلك الصلح ، فضلاً عن ذلك حاولوا ابعاد الشك عن نواياهم فهاجمت قواتهم أنطاليا في آسيا الصغرى ، وبعد عودتهم إلى ميناء فاما جوستا أرسلوا عشرة مراكب لمهاجمة ميناء الاسكندرية سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) إلا ان الاستعداد الكامل للبحرية الجركسية تمكن من التصدي لهم[٢٢] .

وبعد الحملة الفاشلة التي اعدها القائد الجنوي ضد ميناء الاسكندرية توجه بعد ذلك إلى ميناء بيروت وفي أثناء طريقه إلى الميناء تم الاستيلاء على مركب مملوكي كان منطلقاً من ميناء دمياط إلى ميناء بيروت، وبعد وصول الحملة تمكن البيروتيون بقيادة الأمير شيخ المحمودي نائب الشام من مقاومة القراصنة الجنويين ، واضطروهم إلى تغيير مسارهم نحو ميناء صيدا فأبدى اهل الميناء استعداداً كاملاً فاضطروا إلى الانسحاب إلى داخل البحر من دون تحقيق هدفهم الذي يتمثل بالسلب والنهب للمراكب التجارية [٢٣] .

وبعدَ ادراك الجنويين انه لا جدوى من الهجمات التي تشنها على الموانئ المصرية، وذلك لما كانت تلاقيه من مقاومة البحرية الجركسية ، لذا فقد استخدمت سياسة الحرب الاقتصادية بسيطرتها على المراكب التجارية الأوربية كافة المتجهة إلى الموانئ المصرية والشامية ، ومنها استيلاؤها على احد المراكب التابعة للتجار الكتلان ، كما استولوا على مركب لتجار البنادقة كان عائداً إلى ميناء بيروت [٢٤] .

وعلى ما يبدو ان هذه السياسة أيضاً لم تحقق هدف الجنويين، فلم يبق امامهم غير الامتثال إلى الحل السلمي المؤقت لكي يعيدوا تشكيل قوتهم من جديد ، فسعوا إلى طلب عقد الصلح مع السلطان فرج ، وتم ذلك في سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) ونص العقد

على ان تتعهد جنوة بدفع مبلغ من المال يقدر بحوالي ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما سببته من تخريب للموانئ التابعة للدولة الجركسية ، وفي حالة تكرار اعمالها العدائية ضدها ، فسيتم القاء

القبض على جميع التجار الافرنج بمصر وبلاد الشام [٢٥].

ومن الجدير بالذكر ان ذلك الصلح كان حالة مؤقته من لدن الجنويين ليستعيدوا قوتهم من اجل مواجهة القوة الجركسية ، لذا شهد الربع الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي بداية ثانية للقراصنة الجنويين في معاودة اعتدائهم على الدولة الجركسية في سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) إذ تمكنوا من الاستيلاء على ميناء يافا ، واسروا عدداً من المسلمين والاستحواذ على مركب قادم من مصر باتجاه الميناء نفسه [٢٦]، واستمراراً لمنهجهم العدائي ضد الدولة الجركسية ، فقد اتجهوا إلى ميناء دمياط للاستيلاء عليه ، فتصدت لهم البحرية الجركسية التي ارغمتهم على الرجوع عن هدفهم والتوجه إلى منطقة اخرى تسمى الطينة القديمة واستولوا عليها ، إلا ان البحرية الجركسية تداركت الموقف واخرجتهم منها ، فيذكر المقريزي إزاءَ تلك الأحداث قائلاً : ((**ثم مضوا إلى دمياط ، فتكاثر المسلمون على الفرنج ، واخذوا منهم غراب [مراكب صغيرة وسريعة] المسلمين بعد قتال شديد ، وقتلوا منهم افرنجيين واخذوا [سلاحاً] فانهزم بقيتهم ، وحمل الراسان والسلاح إلى السلطان**)) [٢٧] واستمرت العلاقات العدائية بين الجانبين وصولاً إلى عهد السلطان الشيخ المؤيد ، الذي شهد عهده الكثير من الاعتداءات على الموانئ المصرية ، فقد قام القراصنة الجنويون سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) بالهجوم على نستراوة [٢٨] ،فنهبوا ، واحرقوا ومن ثم واصلوا سياسيتهم العدائية ، فاتجهوا إلى ميناء يافا للقيام بالعمل ذاته ، وبذلك تمكنوا من الدخول إلى الميناء فأسر خمسين امرأةً وطفلاً ، لكنهم لم يتمكنوا من البقاء فترة طويلة في الميناء ، لان هدفهم هو السلب والنهب وجمع الأموال ، وقد علق آبن حجر العسقلاني على سياستهم المادية واصفاً وضع اسرى ميناء يافا الذي تم احتجازهم ذاكراً ((**فاسروا من**

المسلمين نساء واطفالاً ، فحاربهم المسلمون ثم افتكوا [فدية] منهم الاسرى بمال)) (٢٩).

وممّا هو ملاحظ في سير الأحداث ان كثرة الموانئ التي أستولى عليها الجنويون قد شجعهم على الاستمرار بسياستهم العدوانية تجاه المماليك الجراكسة، لذلك توجهوا إلى ميناء الاسكندرية بعد انسحابهم من ميناء يافا واستولوا على مراكب تعود للتجار الجراكسة(٣٠).

تكشف لنا جميع تلك الاعتداءات المستمرة على الموانئ المصرية عن حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهي احساس الجنويين بضعف البحرية الجركسية ، فضلاً عن وجود خطر آخر كان مهدداً للجراكسة ، وتمثل بالقبارصة ، وعلى الرغم من ذلك فان الجراكسة لم يردوا على تلك الاعتداءات رداً عسكرياً ، إلا انها اتخذت اجراءات اخرى من أجل تخفيف الاضرار التي تعرضت لها موانئها من جراء القرصنة الجنوية المستمرة ، لذلك قامت بحفر خندق حول الاسكندرية سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) لمنع وصول القراصنة الجنويين إلى الميناء ، وعلى الرغم من ذلك استمرت الهجمات الجنوية على الموانئ المصرية ومنها ميناء الاسكندرية في سنة (٨٢٥هـ/١٤٢١م) واستولوا على مركب محمل بالبضائع تقدر قيمتها بحوالي مئة ألف دينار ، ثم قاموا بحرقه بعد سلب ونهب مافيه على الرغم من مقاومة أهل الميناء ، إلا انهم لم يتمكنوا من فعل شيء (٣١)، ورداً على تلك الاعمال العدائية امر السلطان برسباي باغلاق كنيسة القيامة ، وكرد فعل على هذا الأمر السلطاني امر ملك الحبشة اسحق بن داؤد بن سيف ارعد بقتل وتعذيب عامة المسلمين المتواجدين في بلاده (٣٢)، والسؤوال هنا لماذا هذا الإجراء الذي قام به ملك الحبشة ؟ وللاجابة عن هذا السؤال فاننا أمام احتمالين:

الأول: أراد ملك الحبشة من وراء هذا الإجراء الضغط على الدولة الجركسية بالتخلي عن قرارها، وان تعيد فتح كنيسة القيامة للحجاج الأوربيين .

الثاني: وهو الأهم والأخطر وهو القضاء على الإسلام علماً انهم كانوا متعاونين مع الاراغوانيين من أجل تحقيق مشروعها الذي تمثل بالقضاء على الدولة الجركسية

في مصر، وخاصة انها كانت تمثل مقر الخلافة الإسلامية، لكي يتسنى لهم السيطرة على الاراضي المقدسة ، ولتتكرر مأساة الحروب الصليبية مرة ثانية .

ومن الجدير بالذكر ان الدولة الجركسية كانت تتخذ سياسة التهديد لغرض الضغط على الجنويين ، إلا ان تلك السياسة وحدت الأحباش والجنويين لكونهم من طائفة دينية واحدة وشجعتهم على الاعتداء المستمر على الدولة المملوكية ، وبالفعل هذا ما حدث في سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) استولوا على مركبين في ميناء دمياط محملين بالبضائع ، إلا ان الدولة الجركسية ردت على ذلك الاعتداء بامر من السلطان برسباي ، كما يذكر ابن تغري بردي قائلاً ((**بايقاع الحوطة على أموال تجار الفرنج التي ببلاد الشام والاسكندرية ودمياط والختم عليها ، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم حتى ترد الفرنج ما أخذوه من المسلمين ...**)) (٣٣)

وعلى ما يبدو ان السلطة الجركسية حاولت استخدام اسلوب الضغط من خلال حجز اموال التجار الجنويين ، لكن ذلك الإجراء لم يجد نفعاً ، وذلك لاستمرار الاعتداءات البحرية الجنوية تساندها القوات الكتلانية بهجومهم على ميناء طرابلس الشام في سنة (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) فتم الاستيلاء على مركب محمل بالبضائع والرجال ، وفي غضون ذلك قاموا أيضاً بالاستيلاء على مركب آخر قدم من ميناء دمياط إلى بلاد الشام ، وبناءاً على تلك الاعمال العدائية أُصدِرٍ أمر سلطاني بحجز أموال التجار الجنويين والكتلان ومصادرتها ، وهذا ما زاد من تازم العلاقة بين الجانبين ، فقام القراصنة الجنويون بالسيطرة على ميناء فاما جوستا التابع لجزيرة قبرص ، وذلك في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في الوقت الذي كانت فيه الجزيرة تحت السيادة المملوكية (٣٤).

وعلى الرغم من استمرار التوتر الذي ساد العلاقات المصرية الجنوية إذ بدأت تأخذ شكلاً ودياً بسبب قيام قراصنة الكتلان بالهجوم على ميناء الاسكندرية سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) عندها خشي الجنويون من سيطرة القراصنة الكتلان على البحر وما يعقبه من فقدان مكانتهم السياسية والاقتصادية، مما أدى إلى قيام تحالف جركسي جنوي

ضد الانتهاكات الكتلانية[٣٥] هذا من جانب ، ومن جانب آخر خوف الجراكسة ايضاً من فتح جبهتين عليهم في آن واحد .

وباجتماع تلك الاسباب أدى إلى التقارب السلمي بينهما ، لكن ذلك التحالف لم يكن خالص النية من قبل الجنويين ، لأنهم كما اشرنا سابقاً كانوا يدركون مدى ضعف البحرية الجركسية ، وخاصةً ان الجراكسة لم يتمكنوا من فتح جزيرة رودس ، على الرغم من الحملات البحرية الثلاثة ، وهذا ما شجع الجنويين على الاستمرار في سياستهم العدائية ضدهم، فضلاً عن ذلك محاولة الفونسو الخامس ملك اراغون اثارة القبارصة ضد الدولة الجركسية ، وكذلك تشجيعه لقراصنة الكتلان في مواصلة قرصنتهم في البحر المتوسط ، وخاصة بعد استيلائه على مملكة نابلي سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م) [٣٦].

وتجري الأحداث وصولاً إلى عهد السلطان جقمق الذي شهد عهدُهُ تأزماً في العلاقات بينهما ففي سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) تعرض ميناء صور إلى هجوم جنوي ، فتصدت له البحرية الجركسية واستطاعت الحاق الهزيمة بهم ، وفي الوقت ذاته هاجمت مراكب جنوية أخرى ميناء الطينة في ساحل مصر [٣٧]، وتواصلاً لسير الأحداث ففي سنة (٨٦٠هـ/١٤٥٦) وبالذات في عهد السلطان الاشرف اينال الذي قام باعداد حملة من الأمراء قدرت بحوالي ثلاثمئة مقاتل ، وأمرهم بالتوجه إلى الجون [٣٨] في خليج الإسكندرية لإحضار الأخشاب ، وفي حالة لقائهم بالصليبيين يتوجب عليهم المحاربة ، وبالفعل عند وصول الحملة التفت مجموعة من القراصنة الجنويين ، فتحارب الطرفان ، وبالتالي تمكن القراصنة من قتل عدد من الجند وسلبوا ما كان معهم من سلاح والات حرب واستولوا على المراكب الثمانية عشر ، فبلغ ذلك السلطان الذي أغاظَهُ كثيراً ذلك الحدث ، فاصدر أمراً بالقاء القبض على الرهبان المقيمين في كنيسة القيامة وعلى سائر الافرنج المتواجدين في الاسكندرية ودمياط وغيرها من السواحل [٣٩] وفي الوقت ذاته وصلت رسالة من نائب الشام أوضح فيها بان الصليبيين توجهوا إلى ساحل بلاد الشام بحملة مكونة من ثلاثمئة مركب تقريباً ، انتقاماً لسقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح العثماني [٤٠]، وممّا زاد من خطورة الموقف على الدولة الجركسية هو

السيطرة التامة على ميناء فاماجوستا الذي يعد من اهم الموانئ القبرصية التابعة للدولة الجركسية ، ولاهمية ذلك الموقع أصبح مقراً للقراصنة لغرض شن الهجمات ضد الموانئ المصرية والشامية ، وهذا ما شجعهم على التحالف مع القوات الأوربية الأخرى والتي تحركت للهجوم على مدينة بافوس [٤١] ، ولهذا اضطر حاكم الجزيرة حانبك الابلق إلى طلب المساعدة من السلطان المؤيد لحماية الجزيرة [٤٢]، وبسبب عدم استقرار الاوضاع داخل الدولة الجركسية تأخرت عملية وصول الإمدادات العسكرية للجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك فان اهالي المدينة تصدوا لهم وأجبروهم على التراجع عن المدينة ، لكن ذلك لم يوقف الاعتداءات الجنوية على الموانئ المصرية ، فعندما جهز حاكم قبرص شحنة من الصوف المقرر دفعها كجزية للسلطان الجركسي هجم الجنويون واستولوا عليها ، ووفي أثناء ذلك أرسل صاحب طرابلس احمد بن قليب الشهابي مبعوثاً يحمل كتاباً لحاكم جزيرة قبرص يعلمه بان قراصنة جنوة قد سيطروا على الشحنة المعدة سنوياً للدولة الجركسية ، وقد وصلت إلى ساحل بيروت وهي بحوزتهم ، ويطلب منه ملاحقتهم واستعادة ما استولوا عليه ، فضلاً عن ذلك طلب بان يرسل له السلطان قوات بحرية ليستعينَ بها على قتال الجنويين في ميناء فاماجوستا ، فاستجاب السلطان لطلبه وارسل إلى نواب بلاد الشام يأمرهم بإرسال ستمئة مقاتل إلى جزيرة قبرص، إلا ان الوضع المضطرب في بلاد الشام والمتمثل بصراعات الأمراء حول تولي المناصب حال من دون تنفيذ ذلك الطلب [٤٣] .

لذلك فان الدولة الجركسية كانت على الرغم من كل الانتهاكات المستمرة من قبل الجنويون وسائر القراصنة الاوربيين بحاجة إلى سلطان حازم لديه القوة والقدرة الكافية لوضع حد لتلك الاعتداءات وبالفعل تولى عرش السلطنة السلطان خشقدم الذي استطاع بدوره ان يضع حلاً رادعاً لهذا الأمر الذي شكل تهديداً مستمراً لكيان الدولة الجركسية ، فأرسلت حملة كان هدفها فتح ميناء فاماجوستا ، وتحريره من أيدي القراصنة الجنويين ، فحاصرته في سنة (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) إلا انهم انتظروا طويلاً حتى تمكنت قوتهم البحرية من السيطرة على مركبين جنويين فاستدعت قائديهما لاستجوابهما عن

الاوضاع الداخلية للميناء فابلغوا قائد الحملة عن مدى تدهور وسوء الاوضاع الداخلية للميناء ، بحيث وصل الأمر من الاضطراب إلى قيام الجنويين بقتل قائدهم ، وهذا ما شجع الحملة الجركسية على استمرار محاصرتها للميناء ، حتى تمكنت من دخوله وطرد الجنويين منه في سنة (٨٦٨هـ / ١٤٦٣م)[٤٤].

بعد أن تم البحث في العلاقات المصرية الجنوية توصلنا إلى نتيجة مهمة وهي ، على الرغم من كثرة الهجمات الجنوية على الموانئ الجركسية إلا انها لم تحقق الهدف الذي كانت تصبو إليه لان اسلوب قرصنتهم كان يعتمد على المباغتة بين السلب والنهب والتخريب ومن ثم الانسحاب ، ومقابل ذلك العزيمة والاصرار لدى البحرية الجركسية التي حددت من نطاق اعمالهم العدائية ، وبالتالي ان العلاقات المصرية الجنوية لم تشهد أي اعمال عدائية بعد سنة (٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) وبقي الأمر على هذا المنوال حتى سقوط الدولة الجركسية ، وقيام الدولة العثمانية واخضاع مصر لنفوذها .

المراجع

(١) جنوة : مدينة ايطالية ذات موقع جغرافي مميز ، إذ تقع في اقصى الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة جنوة ينظر :

Encyclopedia Britannica ,(London , 1966),Art " Geneva" ,Vol. 10 , p. 96.

(٢) محمد بيرم الخامس التونسي ، صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ، تحقيق : مأمون بن محيي الدين الجنان (دار الكتب العلمية ـ بيروت : ١٩٧٥م) ، ٢ / ٢٥ ؛ جودة حسين جودة ، جغرافية أوربا الاقليمية (مؤسسة الثقافة الجامعية ـ الاسكندرية : ١٩٧٠م)،ص٥٤٤؛ كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد الشيخ (د / م ـ القاهرة ، ١٩٩٥م)، ص ٥٦ ؛

E. B. " Italy " , Vol. 12 , p. 736 .

(٣) كاهن ، الشرق والغرب ، ٥٧ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ـ أوربا العصور الوسطى (مكتبة الانجلو المصرية ـ مصر ، ١٩٧٢م)، ١ / ٣٢٦ .

(٤) الكومونات : هو مصطلح يطلق على المدينة التي يرتبط عناصر سكانها في حلف ، فهو يلزم المواطنين بالحماية والمقاومة المتبادلة ، وانهم حصلوا على استقلال عن طريق ثورة مسلحة للمزيد ينظر : عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣١٣ ؛

E. B. " Commune " , Vol. 6 , p. 197.

(٥)*E. B. " Commune " , Vol. 6 , p. 197-198.*

(٦) عاشور ، أوربا العصور ، ١ / ٣١٢ .

(٧) أبو يعلي حمزة ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق (مطبعة الاباء اليسوعيين-بيروت:١٩٠٨م)، ص ١٦٣ ؛ مصطفى حسن محمد الكناني ، العلاقات بين جنوة والشرق الادنى الاسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ/١١٧١-١٢٩١م) (الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة : ١٩٨١م) ، ص ٨١ .

(٨) الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٢،٣٥٦-٣٥٧ ، حكيم عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية (الدار القومية-القاهرة ، ١٩٦٦م) ، ص ١٤٩ ؛ عاشور ، قبرص والحروب الصليبية (مكتبة النهضة العربية- بيروت ، ١٩٥٧م) ، ص ٨٢ .

(٩) محمد عبدالسلام تدمري ، تأريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور عصر دولة المماليك (المؤسسة العربية - بيروت ، ١٩٨١م) ، ٢ / ١٥٦ .

(١٠) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات (مطبعة حداد - البصرة ، ١٩٧٦م)، مج٩ / ق١ / ٣٣ ؛ مصطفى حسن محمد الكناني ، العلاقات بين جنوة والشرق الادنى الاسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ / ١١٧١-١٢٩١م) (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، ١٩٨١م) ، ٣٥٢ .

(١١) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ ، ١٥٦ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٤٩ .

(١٢) ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٣٣ ؛ الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٣ .

(١٣) شهاب الدين احمد بن حجر ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق : حسن حبشي (مطابع الاهرام التجارية - القاهرة ، ١٩٧٠م)، ١ / ٣٥٣ .

(١٤) ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٧ ؛ علي بن داود الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الازمان ، تحقيق : حسن حبشي (مطبعة دار الكتب - القاهرة ،١٩٧٠م) ، ١ / ١٥٢ .

(١٥) الكناني ، العلاقات بين جنوة ، ص ٣٥٤ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٠ .

(١٦) لقد شهدت بلاد الشام صراعات داخلية واسعة النطاق ، إذ قام الأمير منطاش بحركة عصيان ضد السلطان برقوق ، مما أدى إلى انشغال الدولة الجركسية باخماد تلك الحركة . للمزيد من التفاصيل ينظر : محمد بن محمد بن صصري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، تحقيق : وليم م. بريز (د / م - لندن ، ١٩٦٣م) ، ١ / ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٩ .

(١٧) ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات ، مج ٩ / ق١ / ٢٢١ ؛ احمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر - القاهرة ، ١٩٧٠م)، ج٤ / ق٢ / ٧٢٣ ، الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١ / ٤٠٢ .

(١٨) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٥٩ .

(١٩) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١٠٧٩ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ١٩٩ ، ٢٣٤ .

(٢٠) المقريزي ، السلوك ، ح٣ ، ق ٣ / ١٠٧٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢ /١٩٩ ؛ عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام (دار النهضة العربية - القاهرة ، ١٩٧٦م) ، ص ٢٦٩ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦١ .

(٢١) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١١١٤، ١١١٦ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٢٥٨ .

(٢٢) عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٢ .

(٢٣) المقريزي ، السلوك ، ج٣ / ق٣ / ١١١٥ .

(٢٤) صالح بن يحيى ، تأريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق : لويس شيخو اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية - بيروت ، ١٨٩٨م) ، ص ٣٤ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٦٤ .

(٢٥) ابن يحيى ، تأريخ بيروت ، ص ٤٠ ؛ عبد السيد ، قيام دولة ، ص ١٥٣ .

(٢٦) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق ١ / ١٤٣ .

(٢٧) السلوك ، ج٤ / ق١ / ١٩٤ ؛ ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٢ / ٤٩١-٤٩٢ .

(٢٨) نستراوة : جزيرة تقع بين دمياط والاسكندرية ، وقيل أيضاً هي جزيرة ذات اسواق في بحيرة منفردة . ينظر : شهاب الدين ابي عبدالله بن ياقوت الحموي ، معجم البلدان (دار صادر - بيروت ، ١٩٥٧م) ٥ / ٨٤ .

(٢٩) أنباء الغمر ، ٣ / ٩٠ .

(٣٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق١ / ٣٥٧ ، ٣٦٠-٣٦١ .

(٣١) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣ / ١٣٨ ؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : جمال محمد محرز واخر (الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - مصر ، ١٩٧١م)، ١٤ / ٢٤٩-٢٥٠ .

(٣٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩١٦ ، ٩٤٩ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٢٠٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٦٠ .

(٣٣) النجوم الزاهرة ، ١٤ / ٢٦٦ .

(٣٤) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٦٦٥ ــ٦٦٦ ، ٨٨٢ ؛ الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣ / ٤٩ .

(٣٥) المقريزي ، السلوك ، ج٤ / ق٢ / ٩٩٤ .

(٣٦) احمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي (دار الفكر العربي - القاهرة ، ١٩٦١م)، ص ٦٦ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٨٩ .

(٣٧)محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك (مطبعة الاوفست ، القاهرة ، د / ت)، ص ٣٥١ ؛ محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج١ ، ج٣ (المطبعة الأميرية الكبرى (مصر ، ١٨٩٤م)، ٢ / ١٠٩ .

(٣٨) الجون : وهو موقع تتجمع فيه المياه . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢ / ١٨٩-١٩٠ .

(٣٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٤ / ١٩٢.

(٤٠)ابن اياس ، بدائع الزهور، ٤ / ١٦٤ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩٠ .

(٤١) بافوس : اسم مدينة تقع في الساحل الجنوبي لجزيرة قبرص . ينظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦ / ٢٢٤ .

(٤٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٦ / ٢٢٤ .

(٤٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ٢ / ٣٦٦ ؛ تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩١-١٩٢ .

(٤٤) تدمري ، تأريخ طرابلس ، ٢ / ١٩٢ .